«ميليشيات الحدود» إلى أقصى درجات الاستغلال، إلاّ أن الملفت للنظر هو أن المسؤولين لم يفعلوا أي شيء لازالة الجيب العميل، ولم يستمعوا إلى أية نصيحة من النصائح الكثيرة التي جاءت من سوريا وجهات عربية وأجنبية متعددة، بضرورة وضع حد للظاهرة التي اسمها سعد حداد، قبل أن يستفحل خطرها على أكثر من صعيد. كما أن صمتا مطبقا كان يقابل، من الجانب الرسمي، العلاقة المكشوفة بين «الجبهة اللبنانية» وبين اسرائيل وسعد حداد.

وعلى حد تعبير احدى المجلات اللبنانية في سنة ١٩٧٩ فإنه «طوال تلك الفترة ظلت الشرعية اللبنانية تتجاهل ما يجري في الجنوب وحجتها أن ما يجري هناك يدخل ضمن اللعبة الدولية، كما كان لها رأي آخر يقول بأن وجود حداد بات ضروريا مقابل الوجود الفلسطيني، وإن أي حل لمشكلة الجيب الانعزالي في الجنوب يجب أن يتوافق مع حل المشكلة الفلسطينية، مكرسا بذلك عمليا صيغة الأمر الواقع»[1].

وقد كان الموقف الرسمي المذكور، يضاف إليه التردد واللامبالاة من جانب القوى العربية المعنية، عنصر تشجيع لـ «الجبهة اللبنانية» للاعلان بشكل مباشر (وحماسي) عن تأييدها للرائد سعد حداد. وقد أعلن كميل شمعون أنه يعتبر سعد حداد «أكبر ضابط وطني في هذا البلد».

ومع أن القوى السياسية والاجتماعية في لبنان كانت مجمعة على إدانة الدويلة الحدودية والدعوة إلى التصدي لها بحزم؛ ومع أن المواقف العربية والدولية كانت في معظمها، على الصعيد الرسمي على الأقل، معادية لهذا العمل التقسيمي والمتصهين، الاّ أن موقف السلطة الشرعية اللبنانية ظل يتراوح بين التغاضي عن المشكلة وبين استخدام «الواقع الجديد» في الجنوب بمثابة ورقة ضغط وابتزاز على سوريا وعلى المقاومة الفلسطينية، وبين اجراء محاكمة شكلية، بل دعوة شكلية للمحاكمة التي لم تتحقق، وذلك بعد مسرحية المساواة بين سعد حداد وأحمد الخطيب. ثم جرى ارسال كتيبة من الجيش اللبناني إلى كوكبا بهدف معلن هو اثبات وجود الشرعية اللبنانية إلى جانب وجود قوات الامم المتحدة، وبنتيجة غير معلنة هي أن قوة الجيش الجديدة رابطت عند حدود الدويلة وأصبحت جزءاً من القوات التي «تراقب» حدود الدويلة، ان لم نقل انها تحرس هذه الحدود. ومع ذلك، فقد تعرضت القوة اللبنانية الرسمية إلى عمليات قصف ومحاصرة واهانة، من جانب القوات الاسرائيلية و«الحدّادية».

ولا شك أن التعامل الذي حصل مع سعد حداد أدى، في ما أدى إليه، إلى اعطاء غطاء شرعي لـ «مسيرة» التعامل بين أية أطراف أو أشخاص لبنانيين وبين العدو الصهيوني. والواقع، فإن «الحواجز النفسية» على الشريط الحدودي كانت قد سقطت، بالنسبة للكثيرين قبل ذهاب أنور السادات إلى اسرائيل بكثير. وثمة مرجعيون و«كتيبة القليعة» ليستا المثالين الوحيدين على التعاون مع العدو؛ والصلات بين مرفأ جونيه ومرفأ حيفا، إنما هي تكملة «لتقاليد» معينة في هذا المجال. وقد روت مجلة «الحوادث» قضية طرحت على لجنة تحقيق عسكرية لبنانية، شُكلت للبحث في ملابسات الاجتياح الاسرائيلي